الشرق والغرب

في ذلك الزمان ، كانت الامبراطورية العربية قد اجتازت عصرها الذهبي ، وبدأت تسير في طريق الانهيار ، تدفعها اليه عوامل شتى أهمها تغلغل الموالي الفرس ثم المماليك الأتراك في جهاز الحكم ، وتمرّد الامراء في الجهات التي يحكمونها ، وتنازعهم على كل بقعة من الارض ، وظهور الدول المستقلة وشبه المستقلة في انحاء الدولة العربية القديمة ، كالصفارية والسامانية والغزنوية والعلوية والأغلبية والفاطمية والطولونية والاخشيدية والزيدية وغيرها .

ولكن عواصم تلك الامبراطورية العربية ظلت مع ذلك مشرق الحضارة السائدة يومذاك في العالم ، وظلت اللغة العربية الرباط الوثيق الذي يصل بين بغداد والقاهرة في الشرق ، وقرطبة واشبيلية في الغرب ، وظل الفكر العربي ، الذي جنى ثماراً يانعة من الحضارة الفارسية والتراث اليوناني ، يواصل سيره الظافر حيث وقفت جيوش العرب عاجزة أو ارتدّت مدحورة .

وقد أدى تضعضع العرب السياسي ، إلى ازدهار الدولة البيزنطية من جديد ، فظهرت على مسرح التاريخ كدولة عالمية محل الامبراطورية العربية ، وألف الحكم البيزنطي والدين الارثوذكسي واللغة

اليونانية وحدة كبيرة من شعوب غربية وشرقية متعدّدة، واصبحت القسطنطينية السوق التجارية الرئيسية بين اسواق العالم .

أما في اوروبا التي كانت تتقدّم ببطء شديد، فقد بدأت الشعوب تلتفّ حول قصور الأسياد وحصونهم ، لتحتمي بها من غزوات القبائل الشمالية ، فتوطّدت بذلك دعائم النظام الاقطاعي الذي يصون السيد في ظله حياة الفلاح مقابل استثماره لعمله ، وحلّ الأسياد محل الملوك في حكم البلاد حكماً فعلياً وإن بقي لهؤلاء الحكم الاسمي . وقد نما هذا النظام في فرنسا بنوع خاص . ولم ينقض وقت وجيز حتى اصبحت للسيد حقوق متوارثة وفرضت على الفلاح واجبات متوارثة أيضاً . وسرعان ما انتظم رجال الاكليروس في عداد الطبقة الاقطاعية ، وتقاسمت الكنيسة ملكية الارض مع النبلاء . وكانت هذه الاقطاعات منعزلةً بعضها عن بعض ، ولكل منها أسواقه وتقاليده الخاصة ، وكثيراً ما تتحارب فيما بينها في البلد الواحد ، أو تتفق أحياناً لمحاربة قطر آخر ، لأن الغزو والنهب يعودان عليها باضعاف ما يعود به العمل الشريف ، حتى غدت الفروسية في ذلك المجتمع الفضيلة الاولى .

وكانت روما والقسطنطينية تهيمنان على اوروبا كلها ، الاولى بوصفها مقر البابا ومركز الديانة الكاثوليكية وهي تطمح إلى توحيد اوروبا تحت نفوذها بهذه الصفة ، والثانية ببضاعتها وفنها ونقدها الذهبي وسيطرة مراكبها التجارية على حوض البحر المتوسط ، وقد حرصت بيزنطية حرصاً شديداً على أن تظل مقاليد التجارة في يدها ، لأنها مبعث عظمتها وتفوقها . وكان اتساع هذه التجارة يحرّر

قسماً من سكان اوربا من سيطرة الاقطاعية، فينشئون على شواطىء البحر ، ولا سيما الشواطىء الايطالية ، مدناً تجارية تنقل بضائع الشرق إلى الغرب .

وساد السلام حيناً أقطار اوربا المتفككة المتعادية ، فأتيح للاقطاعية أن تنتقل إلى عهد من الازدهار انصرف فيه اصحاب القصور والاديرة إلى العناية باستثمار اراضيهم وزيادة خيراتها ، مجندين جماهير الفلاحين لقطع الغابات وتجفيف المستنقعات وشق الارضين وتعبيد الطرق ، حتى تغير وجه اوربا وامتدّت فيها السهول المترامية والحدائق الغناء ، وبدأ الفلاحون يستخدمون الحجر في بناء منازلهم ، فنشأت القرى الى جانب القصور والأديرة، وعمرت الكنائس من الحجر بدلا من الخشب على طراز إسلامي انتقل الى فرنسا عن طريق الاندلس بواسطة البنّائين العرب . وعن هذه الطريق نفسها انتقلت إلى فرنسا وإلى اوربا كلها ، اسس التفكير العلمي والفلسفي ، وفتوحات الاغريق والفرس والعرب في هذا الميدان ، كما انتقلت اليها عن طريق بيزنطية الفنون والآداب .

واجتازت اوربا الألف الأول للميلاد، واتصالها بالشرق يزداد، واتجارها وإياه يتعاظم ، ونهوضها وتكتلها يكادان يرافقان انهياره وتمزق اوصاله . وقد اشتدّ في الاقطار الاوربية المختلفة، النزوع الى الحضارة وبنائها على الاسس الكاثوليكية. إذ أن اوربا لم تكن تفرق في القرن الحادي عشر ، بين الثقافة والمسيحية . وكانت المسيحية تواصل سيرها الظافر ، حتى لم يبق في اوربا من البلدان الوثنية إلا بلد واحد هو السويد. فان حرث الأرضين كان يرافقه حرث الضمائر .

وقد انتشرت الاديرة على الدروب المتشعبة التي كانت في وقت واحد: طرق الحج إلى بيت المقدس ، والطرق الاقتصادية الرئيسية. لقد انشئت الوف الأديرة ، وأخذ الرهبان يمتزجون بالحياة الاجتماعية فيُدخلون عليها فنونهم ومعارفهم ، ويبنون ، ويغتنون، ويضمنون في الوقت نفسه ملكية المنطقة التي يستثمرونها . وهكذا أضحت المسيحية في اوربا ، كما كانت البوذية في آسيا ، والاسلام بين الشرق والغرب ، الرواق الذي تعبر منه الحضارة . لكن نفوذ البابوية كان في ذلك الحين أضعف منه في اي وقت آخر ، إذ كان البابا الذي انتُخب في سنة ١٠٣٣ لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، مما جعل الجميع يدركون ضرورة إصلاح الكنيسة ويتحدثون به. إلا أن الأديرة كانت ما تزال تنشر في اوربا شبكة واسعة من المبادلات التجارية، تنمّي القوى الاجتماعية الناشئة فيها ، وتجعل الاتجار مع بيزنطية أمراً محدوداً لا يكفي حاجات المجتمع المتزايدة .

كانت البضائع التي يحملها التجار كثيرة متنوّعة ، وكان الصناع اليدويون الذين ينتجون النسيج في الفلندر وشمبانيا بحاجة متعاظمة الى الصباغ والحرير والقطن التي تصلهم عن طريق البندقية ، الجسر الذي يصل بين الغرب والمجد البيزنطي . وقد استطاعت الغزوات العربية أن تنزل أضراراً كبيرة بالمراكب البيزنطية ، فأفادت البندقية من ذلك فائدة كبرى ، إذ نشط تجارها الى العمل المستقل، ولم ينقض أمد يسير حتى تحوّلت هذه المدينة الى مركز تجاري عظيم في حوض البحر المتوسط ، تنافسه بيزة وجنوة وتناصره مرسيليا ومونبليه ، ولم تعُد هذه المجموعة من المدن التجارية اسواقاً

لبيزنطية بل أصبحت مزاحماً قوياً لها في الاسواق العالمية .

وقد أدرك بازيل الثاني امبراطور القسطنطينية الخطر الذي يحدق ببلاده من جراء هذه المزاحمة القوية ، ولكن كان عليه في ذلك الوقت أن يردّ عن بلاده أخطاراً اخرى ، فالتحم مع البلغار في معارك ظافرة أمر في نهايتها بان تسمل عيون ١٥ الفاً من اسرى البلغار . واشتبك مع العرب في قتال طويل كان النصر فيه سجالا بين الفريقين. فلما مات ،تداعت الامبراطورية البيزنطية في جميع تخومها ، واضحت القسطنطينية ، مثل بغداد، رمزاً لحضارة عظيمة ، اكثر منها مركزاً لدولة قوية . ثم ما لبثت أن تعرّضت لخطرين جديدين مفاجئين :غزوات الشعوب الشمالية او النورماندية في اوربا وهجمات القبائل التركية في آسيا .

ذلك ان قبائل السلاجقة التي استوطنت اواخر القرن العاشر في أنحاء أموداريا ، ما لبثت أن تقدّمت شطرَ فارس واعتنقت الاسلام وثارت على الدولة الغزنوية فقهرتها ثم زحفت صوب الغرب فدانت لها البلاد من تخوم فارس الى شواطىء البحر المتوسط ، وأخذت تناوىء العلويين في الشام ومصر حتى امتلكت الجزء الأكبر من بلاد الشام وكادت تضع يدها على البلاد المصرية . كل ذلك والخلافة باقية لأحفاد العباسيين ، ولكن كان للخلفاء منها الاسم ، وللسلاجقة ، كما كان للديلم من قبلهم ، مسماها . وقد بدا حينذاك أن هذه القبائل الزاحفة ، تهدّد الشرق والغرب بموجة بربرية جديدة تطغى على مراكز الحضارة في العالم . بيد أن البرابرة الهاجمين كانوا يحملون هذه المرة جوازاً هو الاسلام ، يدخلون باسمه

الى تلك البقاع ويحتمون بنفوذه فيها . ولكن هل كان في وسع الانظمة الاسلامية أن تتغلغل في حياة هذه القبائل الرحالة وتطبعها بطابعها وتحررها من همجيتها ، بمثل تلك السرعة ، دون أن تلابس الحضارات السائدة ؟

أما القبائل النورماندية فكانت الشعوب الاوربية تعرف بأسها وتقدر خطرها . وكانت تراها في كل مكان يتسع فيه المجال للمغامرة . وقد انتظم فريق منها في صفوف الفرسان الفرنسيين الذين وضعوا أنفسهم تحت امرة ملك قشطيلة في حروبه مع ملك قرطبة ، كما انتظم فريق آخر في صفوف الاجناد العرب الذين بلغ من تضعضعهم في الأندلس والمغرب ، انهم استنجدوا بالقبائل الشمالية لمساعدتهم في صقلية ، فما كادت هذه القبائل تستقر في جنوب ايطاليا حتى أنشأت دولة إقطاعية نورمندية برئاسة روبير غوبسكار بسطت سيطرتها على صقلية كلها .

ولقد كان هذا الهجوم المزدوج حرياً بأن يخدم بيزنطية ، فان السلاجقة بتغلبهم على خليفة بغداد قد أنقذوها نهائياً من مطامح الخلفاء العباسيين ، كما أن النورمنديين بانتزاعهم الحكم من أيدي العرب في صقلية ، قد أنقذوا المراكب البيزنطية من الغزوات العربية التي كانت تتعرّض لها . ولكن الواقع أنّ هذين الحدثين الخطيرين قد أصابا الامبراطورية البيزنطية إصابة كبيرة لا تقل عن الخسارة التي تكبّدتها من جرّاء النشاط التجاري الذي أبدته المدن الايطالية . وكانت الضرائب الفادحة ، وثورات الامراء الاقطاعيين ، والفوضى التي سادت في صفوف الجيش ، قد زلزلت صرح الامبراطورية

البيزنطية . ثم أصبح الانشقاق بينها وبين البابوية أمراً واقعاً صريحاً ، بعد أن استعادت هذه مركزها في اوربا بما أدخلت من إصلاح على الكنيسة ، وأصبحت الدولة البابوية في عداد الدول القوية الفعالة ، فقضت القطيعة بينها وبيزنطية على ما كان لهذه من نفوذ في ايطاليا ، وبات واضحاً أن امبراطورية الشرق لن تصمد أمام أي هجوم جديد تقوم به على بلادها قبائل الأتراك او النورمانديين . إلا أن العرب والبيزنطيين ظلوا مع ذلك أسياد الفكر ، وظلت الحركة الفكرية تتابع ازدهارها وتطورها في عواصم الشرق . بيد أنه مهما كان من قوة هذه الحركة ، فانه لم يبق في وسعها أن تطغى على القوى الفكرية الخاصة التي بدأت تنمو في الغرب مع نمو دوله واتّقاد الحياة الاجتماعية والدينية فيه .

وبينما كان روبير غويسكار يحطم مقاومة بيزنطية ، ويهدّد الشاطىء الدلماسي ، كان الاتراك يزحفون على الاناضول ، فيستولون على ارمينية ، ويأسرون في سنة ١٠٧١ الامبراطور البيزنطي نفسه على مقربة من بحيرة دوفان . وأمام هذه الخسائر التي منيت بها بيزنطية ، قوي نفوذ البابوية في اوربا ، وظهر البابا غريغوار السابع الذي كان يعتقد بأن مهمة وكيل الله هي قيادة المجتمعات البشرية ، فأنشأ يسعى لدى ملوك اوربا لفرض إصلاحاته على الأساقفة أينما كانوا ، وتحرير الاقطاعية الاكليريكية من تدخّل السلطات المدنية ، فاستطاع أن يربط الاوساط الاكليريكية بالمقر البابوي ، وأن يقيم فوق النظام الاقطاعي تيوقراطية تحقق السيادة البابوية . وكان ذلك يعني إنكار كل سيادة اخرى ، ومنها سيادة الامبراطورية

الجرمانية المقدّسة التي كان رئيسها الامبراطور هنري الرابع لا يقل عن غريغوار السابع قوة وذكاء ، فوقف في وجه الاصلاح البابوي ، وجاهر بمعارضته إياه إلا اذا بقي للامبراطور حق تعيين الأساقفة ورؤساء الاديرة ، واستحرّ النزاع بينهما في سنة ١٠٧٦ ، فأعلن البابا أن سلطته تشمل التيجان والعروش نفسها ، وسارع إلى خلع هنري الرابع وحرمانه ، فانقسمت المانيا على نفسها ونشبت فيها حرب أهلية كادت تطوّح بعرش الامبراطور لولا أنه بادر إلى إظهار خضوعه ، ولكنه لم يكد يحرز رضى البابا عليه ، ويستعيد قوّته ونفوذه ، حتى بطش بخصومه في المانيا ، وحرّض رجال الاكليروس الساخطين على كبار الاساقفة ورؤساء الاديرة ، فأعلنوا تمرّدهم على غريغوار السابع ورفعوا رجلاً آخر الى مقام البابوية .

ولم تقبل سنة ١٠٨٣ حتى انعكست الآية تماماً ، إذ استولى هنري الرابع على روما ، وتوّجه فيها البابا الموالي له ، بينما مضى غريغوار السابع يستنجد بالنورمنديين . وكانت مراكب غويسكار قد انهزمت في بحر الادرياتيك أمام مراكب البندقية المحالفة لبيزنطية ، فتخلى عن معاركه هذه واتجه إلى محاربة هنري الرابع ، واستطاعت جيوشه أن تخرج جيوش الامبراطورية الجرمانية من روما ، ولكنها ما كادت تؤدي هذه المهمة حتى انقضت على المدينة فنهبت أرزاقها وسبت نساءها ، بحيث لم يبق في وسع غريغوار السابع الظهور أمام مواطنيه فرجع معها الى صقلية واعتزل فيها .

وفي سنة ١٠٨٥ توفي غويسكار بعد أن أوصل الخطر النورماندي الذي يهدّد الامبراطورية البيزنطية الى تيساليا . وفي تلك السنة

نفسها توفي غريغوار السابع ايضاً . فأوقف موت هذين الرجلين نمو المشاريع الخطيرة التي نذرا نفسيهما لها ، لكنه لم يوقفه إلا الى أمد يسير . فان هنري الرابع ، قاهر البابا ، كان يعاني أزمة شديدة أمام تمرّد الاشراف السكسونيين ، وابنه كونراد الذي نصّبه البابا ملكاً على ايطاليا ، والمدن الرئيسية في وادي بو . كما أن هزيمة النورمانديين أمام اسطول البندقية ، قد منحت جمهورية سان مارك امتيازات جمة في الشرق أقرّت بها بيزنطية اعترافاً بالجميل . فجعل منها استيلاؤها على هذه المراكز الهامة ، منافساً قوياً لبيزنطية يهددها بخطر لا يقل عن خطر الغزوات النورماندية . وقد وضعت هذه الدولة المتداعية آمالها حينذاك في الكسي كومنين أعظم قائد أنجبته ، ورفعته الى سدّة الحكم ، فلم يستطع هذا القائد ، رغم حنكته ومهارته ، أن ينتشل بلاده من الهوة التي تنحدر اليها .

وكان مصير العرب لا يختلف كثيراً عن مصير البيزنطيين ، وكأنه يسير معه نحو انهيار محتوم ، فان الاسبانيين قد استردوا طليطلة ، واستنجد المغاربة بالبربر والمرابطين فأسس هؤلاء مدينة مراكش ، وأنشأوا من المحيط الى الجزائر والسودان مملكة ألحقوا بها القسم العربي من اسبانيا ، غير أن هذه المملكة نفسها كانت تتراجع شيئاً فشيئاً أمام فتوحات الاسبان .

أما في الشرق فقد وقفت قبائل الأتراك على رأس الشعوب العربية والشعوب الاسلامية ، وبدأت الامبراطورية التركية تحل محل الامبراطورية العربية القديمة . وكانت تلك القبائل تستر مطامعها التوسعية بستار الرغبة في نشر الاسلام أو المحافظة عليه ، لتظهر

أمام هذه الشعوب بمظهر الوريث الشرعي لامبراطورية العرب . وبينما كان الاتراك ينتشرون من تركستان الى حدود بيزنطية كان اميرهم ملكشاه يتبنى الثقافة الفارسية ويظهر بمظهر الفارسي العريق . ولم يكن هذا كله ليعني الغرب في شيء ، ولكن الذي كان يعنيه ويخيفه أن جيوش الأتراك لا تفتأ تتوغل في الاناضول، وقد نفذت منه الى انطاكية فاحتلتها ، وأنشأت في ازمير اسطولا كبيراً ، بحيث لم يعُد خطرها مقتصراً على بيزنطية وحدها ، بل أخذ يقلق البندقية التي تهمها التجارة الشرقية بقدر ما تهم بيزنطية إن لم يكن اكثر منها . فمنذ سنوات عدة أنشأت البندقية المخازن والمستودعات في كل مكان ، حتى في شبه جزيرة القرم ، وعقدت معاهدة تجارية مع بغداد ، وأرسلت عملاءها الى أنحاء الشرق العربي والشرق الاوسط كله ، ولم تكن تتردد في تموين هذه البلاد حتى بالعتاد الحربي . فان الطبقة الارستوقراطية في هذه الجمهورية التي لم تكن تعاني ما تتخبط فيه بقية البلدان الاوربية من نزاع بين الملاكين العقاريين والتجار، قد انصرفت الى التجارة وحدها وجنت منها ارباحاً طائلة ، فأثرت بذلك تأثيراً كبيراً في شؤون بيزنطية المالية ، ووجهت الى هذه الامبراطورية ضربة قاضية ، واصبح التجار البيزنطيون مهما تكبدوا من مشاق وعادوا من بلاد الصين بالامتعة والبضائع ، فان القسط الأوفر من ارباحهم كان يعود الى تجار البندقية وبيزه وجنوة لانها الابواب الرئيسية لاسواق الغرب . ففي ايطاليا وليس في غيرها ، كانت تنتهي في تلك الايام طريق الصين ، او طريق الحرير ، التي كانت اكثر الدروب المطروقة في ذلك العهد .

كانت اوربا تخطو نحو المدنية خطوات واسعة في ظل الاقطاعية المزدهرة . فبفضل قصر السيد ودير الراهب، نمت الزراعة وادخلت عليها اساليب جديدة لزيادة الانتاج ، وبفضل التبـــادل التجاري تحسنت وسائل النقـــل وطرق المواصلات فتطورت العلاقات الاقتصادية تطوراً كبيراً ، ونشأت الاسواق والمدن في الاسواق الخصبة ، وتأسست معامل حرفيـة صغيرة كان الصناع اليدويون يستخدمون فيها اساليب جديدة ، فنمت بذلك المقدرة الشرائية ، وتكاثرت حاجات الاهلين ، واتسع في كل مكان نطـاق البضائع المتداولة . ووقفت ايطاليا وفرنسا والفلندر وبريطانيا على رأس هذه الوثبة المدنية والصناعية الكبيرة . وسادت في القصور الاقطاعيـة الحياة الباذخة وألوان الترف . وأدى هذا الازدهـــار الذي شمل الظروف المادية ، الى ازدهار فكريّ بدا في فرنسا خاصة .

لقد كان التجار يحملون من الشرق العطور والتوابل والصموغ والأصباغ والسكر والعاج والحرير والبخور والاحجار الكريمة ، وينقلون اليه مقابل ذلك منتوجات الغرب وفي مقدّمتها الانسجة والاجواخ . وواضح أن أرباح هؤلاء التجار كانت تبلغ أضعـاف ما يربحه منتجو البضائع التي يتاجرون بها ، فمن البديهي إذن أن يشتدّ النضال بينهم والاقطاعيين في سبيل سلامة المواصلات وحرية الاسواق والتخلص من الضرائب والمكوس ، وأن يقف الى جانبهم في هذا النضال أبناء المدن الناشئة من الصناع اليدويين والحرفيين، وأن تتطلّع هذه القوّة الاجتماعية الجديدة الى الاتجاه بنشاطهـــا الاقتصادي الى جميع الأنحاء ، يشجّعها على ذلك ويغريها به أشـدّ

الاغراء ، مثل البندقية التي سادها الترف الباذخ لما يتوافر لها من ثراء متعاظم . وهكذا أخذ ينشأ بين هذه المدن التجارية في ايطاليا وفرنسا ، التي قامت على طريق الاتجار مع الشرق ، رابطة اقتصادية قوية وتضامن وثيق في المطامح والآراء . ولم يكن وصول الاتراك بالتالي ، الى الشواطىء السورية ، ليؤلف خطراً على مصالح بيزنطية وحسب ، بل كان قبل ذلك واكثر منه ، خطراً على هذه المدن التجارية في ايطاليا وفرنسا وغيرهما من بلدان الغرب . وإذا كان قيام الحكم التركي في هذه الربوع ، قد استلب الحجاج المسيحيين الذين يؤمون بيت المقدس ، ما كانوا يتمتعون به في ظل الحكم العربي من حرية وتسامح عظيمين ، لا سيما بعد الاتفاق المشهور بين شارلمان وهرون الرشيد ، حتى بدأوا يحجون اليه متجمّعين ومتسلحين ، فان المدن الاوربية التجارية القائمة على شواطىء البحر المتوسط قد شعرت أيضاً بأن هذا الحكم نفسه يهدّد اوربا بالتخلي عن مراقبة تجارة الشرق للاتراك انفسهم ، بيناهي تتطلع الى تقوية هذه التجارة .

وهكذا نمت تلك الفكرة الرهيبة : فكرة الحروب الصليبية ، التي تركت جرحاً عميقاً في حياة البشرية ما تزال آثاره باقية ، وأسفاه ، حتى الان . وقد جدّدت هذه الحروب المريعة ما دار من نضال عنيف بين الشرق والغرب في حروب طروادة وروما ، وحروب فارس ويونان ، ودشنت الكفاح الذي نشب بينهما بعد انطفاء جذوة الحروب الصليبية بأجيال : كفاح الغرب لاستعمار الشرق واستثماره ، وكفاح الشرق في سبيل تحرره واستقلاله ، وهو كفاح مؤثر بلغ أوجه في عصرنا الحاضر .